أخلاق الوزيرين

« مثالب الوزيرين الصاحب ابن عباد وابن العميد »

تأليف

أبي حيان علي بن محمد التوحيدي

حققه وعلق حواشيه

محمد بن تاويت الطنجي

دار صادر
بيروت

جميع الحقوق محفوظة
١٩٩٢م - ١٤١٢هـ

طبع بإذن من المجمع العلمي العربي بدمشق
رقم ٥٠٤/ص بتاريخ ١٩٩١/١٢/٨م

بسم الله الرحمن الرحيم

كتاب

أخلاق الصاحب وابن العميد

ترجع صلتي بهذا الكتاب إلى أوائل شهر ديسمبر من سنة ١٩٥٣ م ، فقد زرت صديقي الكريم السيد عزيز بَرْكَر المدير العام إذ ذاك للمكتبات بتركيا ، ورَجوته أن يُطلِعني على فهرس مكتبة « أسعَد أفندي » باستانبول ، لأخرج منه رقماً لكتاب كنتُ بحاجة إلى إحضاره من استانبول إلى أنقرة للاطلاع عليه .

وبقي الفهرسُ بعد ذلك في يدي أتصفّحه ، ولفَتني عنوان كتاب في أول المجموعة رقم ٣٥٤٢ ، كُتب هكذا « الصداقة أو الصديق » وكُتب اسم المؤلف تحته هكذا : « أبو حيات الأندلس » ، ثم يليه عنوان بهذه الصورة : « في العلوم » « كذا » إشارة إلى الكتاب أيضاً للمؤلف نفسه .

وعلى الرغم من هذا التصحيف الواضح ، فقد كان ظني قوياً بأنني أمام نسخةٍ خطية من « الصداقة والصديق » ، ومن « رسالة العلوم » لأبي حيان التوحيدي .

لقد اختار أبو حيّان للتّعبير عن مضمون هذه الرسالة كلمةَ « أخلاق » ؛ والسبب الذي دعاه أن يَسلُك مسلكَ الحذَر والاحتياطِ ، ويختارَ هـذا العُنوان لرسالته دونَ غيره ، في مجالسِهِ الخـاصّة — حيث يُناجي أولئك الذين يَطمئنّ إليهم ويأتمِنُهم على أحاديثه — لا يزال قائمـاً ، وبصفةٍ أخطَر وأدعى للاحتياط والخوف ، عندما يُذيع كتابَه ويَعرِضه على الجماهير ، وفيهم العدوّ المتربّص ، والحسود الذي لا يَرحَم .

وكلمة « أخلاق » — بعدُ — هي التي تَتّسع للخطة التي رَسَم حُدودَهـا في مقدمة كتابه هـذا ؛ فلم يقتصِر في أحاديثه عن الوزيرين ، وهذه عبارته : « على ما كان طالباً لمقتهما ، وداعياً إلى الزّراية عليهما ، وباعثاً على سُوء القول والاعتقاد فيهما » [1] ، بل أضاف إلى هـذه الأحاديث — وهذا قولُه أيضاً : « ما شاع من فَضائل لم يَشلِهُما فيها أحَدٌ في زمانهما ولا كثيرٌ ممّن تَقدّمهما [1] » .

ومن هنا جاء حديثه عن الكرَم واللؤم في أخلاقهما ، والنقص والزيادة ، والوَرَع والانسلاخ ، والرَّزانة والسُّخف ، والكَيْس والبلَه ، والشجاعَة والجُبن ، والوفاءِ والغَدر ، والسّياسة والإهمال ، والاستعفاف والنَّطَف ، والدهـاء والغَفلة ، والبيان والعيّ ، والرَّشاد والغَيّ ، والخطأ والصّواب ، والحِلم والسفَه ، والخَلاعَة والتماسُك ، والحياء والقِحَة ، والرحمة والقَسْوة [2] .

وسواء وفّى أبو حيّان بخطته هـذه أو لم يفعَل ، فإنه يُريد ، في إصرارٍ ،

---

(١) الأخلاق ١٣ ، وانظر الإمتاع ١/٥٤ .

(٢) الأخلاق ٩ — ١٠ .

أن يظهر بمظهر الوفيّ لها ، وأن عمَله في هذا الكتاب سار على هذا النهج .

وأبو حيّان بعدَ هذا لم يكن من الجرأة ومناعة الجانب — وإن أعجَبه ، حين يكون بنجوة من الخطر ، أن يتظاهر بمظهر الشجاع الذي لا يقيم لخصمه أيّ وزن — بحيث يتحدى الوزيرين وأشياعَهما ، فيسمي كتابه « مثالب » أو « ثلب » أو « ذم الوزيرين » كما حلا للناس أن يسموه فيما بعد ، بل إنه — بعد أن اختار لكتابه هذا العنوان الذي يَسع المجال فيه للثناء بالخير وبالشر معاً — بلَغ من جزَعه أن أخفاه عن الأعين [1] ، واحتفظ به في مسودته عنده ، واعتذر للوزير ابن سعدان — حين طلبَه منه — بأنه لا جَسارة له على تحريره ، وبأن جانب الصاحب مَهيب ، ومكره له دَيب ، وتمثّل له بقول الأول :

إلى أن يغيبَ المرء يُرجى ويتّقى ولا يعلم الإنسان ما في المغيَّبِ [2]

وحينَ استسلم لوعيد أبي الوفاء البُوزجَاني ، وقدّم له كتابه « الإمتاع » ، وفيه ، كما يقول أبو حيّان : « ما يشيط الدّم المحقُون ، ويُنزَع من أجله الروح العزيز ، ويُستَصْغَر معه الصَّلب ، ولا يُقنع فيه بالعذاب الأدنى دون العذاب الأكبر » [3] ، كان أيضاً خائفاً يترقّبُ ما لعلّه أن يلحَقه من أذىً لو اطلع الناس على ما في كتابه .

ولهذا جهِد ، ما وسِعته الحيلة ، في تبرير أقواله وأحكامه على الوزيرين وغيرهما في كتابه ؛ فالتَوْى في نقده ، واحتجّ له بأن أناساً قبله هَجَوْا وثَلَبوا

---

(١) الأخلاق ٥٥/٥٤/٥٠ .
(٢) الإمتاع ٥٤/١ .
(٣) الإمتاع ١٣/١ .

وربما كان ياقوت الحموي (٥٧٥ — ٦٢٦ هـ)[١] أول من نظر إلى أبي حيان نظرة متأنّية ، اتضَحت له معَهـا شخصيتُه وعلمُه وأدبه ، فعجِب من إهمال المؤرخين له[٢] ، مع ما له من المنزلة الرفيعة التي أطلَعه عليها تقَصّيه لأحواله ، وقراءتُه المنظّمة لـكتبه .

وكأنّ عنايةَ ياقوت باقتناء الـكتب والاطلاع عليها ، على إختلاف مذاهب مؤلّفيها ومَشاربهم ، واشتغالَه بالنسخ ، لغَيره مُقابِلَ أجر[٣] ، ــ قد مكّنه كل ذلك من أن يحصلَ على مجموعة من مؤلفات أبي حيان[٤] ، ويستخرجَ له منها ترجمة واسعة ضمنها كتابه « إرشاد الأريب » .

وحينما نقل ياقوت عن كتابنا هذا ، وقد كرّر النقل عنـه ، أورده بأسماء مختلفة ؛ ذكره باسم « أخلاق الوزيرين » في أربعة مواضع من الإرشـاد[٥] ، وباسم كتاب « الوزيرين » في ثمانية مواضع منـه[٦] ، وباسم « مثالب » في

---

(١) الوفيات ٢/٢٥٤ .
(٢) الإرشاد ٥/٣٨١ .
(٣) الوفيات ٢/٢٧٨ .
(٤) كان بين يديه منها : كتاب الأخلاق وقد نقل عنه أزيد من أربع عشرة مرة في كتابه الإرشاد . وكتـاب محاضرات العلمـاء (الإرشاد ١/١٥ ، ٢/٣١٤ ، ٣/٨٧ ، ٦/٤٦٦) . وكتـاب تقريظ الجاحظ وكان بخط أبي حيان (الإرشـــاد ١/١٢٤ ، ١٤١ ، ٣/٨٦ ، ٦/٥٨ ، ٩٦) . وكتـاب الصداقة والصديق (الإرشـاد ٥/٣٨١) . والبصـائر والذخائر (الارشاد ١/١٤٨) .
(٥) ٢/٢٧٣ ، ٢٨١ ، ٥/٣٩٢ ، ٤٠٤ .
(٦) ١/٢٨١ ، ٢/٤٤ ، ٩٥ ، ٢٧٣ ، ٥/١٥٧ ، ٣٨٠ ، ٣٨٢ ، ٣٩٢ .

موضع واحد[1] ، وباسم « ذم الوزيرين » في موضع واحد أيضاً[2] .

وفي هذه المواضع جميعاً ، لم يقل ياقوت ، ولو مرة واحدة : إن أبا حيان سَمّى كتابه[3] هذا بأحَد الأسماء التي ذَكَرها بها ، ويجب أن لا يبقى هنا مجال لاحتمال أن يكون الكتاب قد سمي بها جميعاً .

وبناء عليه ، فالتفسير الذي نراه لصنيع ياقوت هذا ، هو أنه استطال العنوان الذي على ظهر المخطوطة ، والذي قدّرنا أن أبا حيّان وضَعَه علماً لكتابه ، فتصَرّف فيه طلباً للاختصار ، وأخَذ اسم الكتاب من الموضوع الذي يتَناوله .

وهو تغييرٌ لا نفرضه على ياقوت ، بل نَستفيده من عَمَله في أسماء كتب أخرى ؛ فقد استطال أو استثقل اسمَ : « إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب » ، وهو الاسم الذي سمى به كتابه[4] ، فأحال عليه في كتابه « معجم البلدان » باسم « معجم الأدباء »[5] مرة ، وباسم « أخبار الأدباء[6] » مرة ثانية ، وباسم « كتاب الأدباء »[7] مرة ثالثة . هذا صنيع ياقوت في كتابه .

---

(١) الإرشاد ٥/٣٨٠ .

(٢) الإرشاد ٥/٣٨٢ .

(٣) وقد أخطأ ابن شاكر (عيون التواريخ سنة ٣٨٠) حيث نسب لياقوت أنه قال : إن أبا حيان سمى كتابه مثالب الوزيرين .

(٤) الإرشاد ١/١٣ .

(٥) معجم البلدان ٦/٢٨٩ .

(٦) معجم البلدان ٥/٢٨٩ .

(٧) معجم البلدان ٦/١٧٧ .

ولعل هذين المثالين كافيان للدلالة على أن ابن خلكان أفقد كلمة « سمى » هذه دلالتها المعروفة .

* * *

ولم يُخْفِ أبو حيان الأسباب التي دفعت به في غير شفقةٍ إلى تأليف كتاب الأخلاق هذا ؛ فقد فارق أعزته ببغداد ، وهجر أهلَه وإخوانه بها ، وقصد الصاحب بالريّ ، آملاً أن ينالَ ببابه ما كان طمعُه يدندن حولَه ، ونفسُه تحلم به ، وأملُه يطمئن إليه [1] ، فخيب الصاحب أملَه ، وأساء معاملته ، فتجرد أبو حيّان للانتقام .

ولقد أجاد في تصوير المأساة وحدتها بقوله : « ابتُليت به وابتُلي بي ، رماني عن قوسه مُغْرِقاً . فأفرغتُ ما كان عندي على رأسِه مَغيظاً ، وحرَمني فازدريتُه ، وحقَرني فأخزيتُه ، وخصّني بالخيبة التي نالت مني ، فخصَصْتُه بالغيبة التي أحرَقَتْه ، والبادي أظلم ، والمنتصِف أعذَر . . . ولَئن لم يرني أهلاً لنائلِه وبره ، إني لا أراه أهلاً لقول الحق فيه ، ونَثّ ما كان يشتمل عليه من مخازيه [2] » .

« . . . وتابَع المكروه من جهته ، وتعقَّبني بالشر ، ومتى وجَد غرّة اهتبلها ، ولما رأى فرصة انتهزها ، ولم يرض حتى حسر عن الذراع يداً ، فكشف القناع ، وجرّد العداوة ، وأظهر التّسَلط والتغلّب ، فقاضت النفس بعدَ امتلائها [3] » .

« ولما نالَني هذا الحرمان الذي قصَدني به وأحفَظَني عليه . . . أخذت أتلافى

---

(١) الأخلاق ٨٥ .

(٢) الأخلاق ٨٦ ، ٨٧ .

(٣) الأخلاق ٥٠ .

ذلك بصدق القول عنه في سُوء الثناء عليه والبادي أظلَمَ [1] » .

ومات الصّاحب ، وجُرح أبي حيّان الدامي لم يندَمل ، وثائرتُه لم تهدأ ، فهو لا يزال يقول : « ولئن كان منَعني مالَه الذي لم يبق له ، فما حظَر عليّ عِرضَه الذي بَقي بعدَه [2] » .

فهذا هو السّبب المباشر لهذه الخصومة التي سجّلها أبو حيان في كتابه هذا ، وهو سبب كافٍ على حِدَته لإنشائها ولإذكائها معاً .

فما دامَ الصّاحِب ابن عبّاد ، وأبو حيّان التّوحيدي ، كل منهما إنسان له من الصفات البشرية السَّيِّء منها والحسَن ، يُخطىء في سلوكه مع الناس ويصيب ، فإن حِرمانَ الصاحب أبا حيّان ، وثوْرةَ أبي حيان عليه وثلبَه في مقابل ذلك ، جارٍ على المجرى المألوف للحوادِث ، وليس فيه شذوذٌ يحتاج إلى التوجيه وإقامة المعذرة فيه .

والحياة اليومَ وكذلك كانت بالأمس ، تُمِدّنا بصورة مستمرّة ، بالنّماذج التي لا يلحقها العدّ ، لطلّاب الرزق بمختلف وسائلهم ، ولآلاف أخرى ممن يَمتحِنُهم القَدَر فيضعُهم على أبواب الرزق ، فيَمنَحون ويَمنعُون ، حسَبما شاء لهم هواهم أن يفعَلوا ، فيَلهَج الممنوح — صادقاً وكاذباً — بالثناء ، وينقَلب المحروم ناراً محرقة تأتي على اليابِس والأخضَر .

ومقارنةٌ سريعةٌ بين بعض صفاتِ الصّاحب وأبي حيان ، وتقديرُ

---

(١) الأخلاق ٣١١ .

(٢) الأخلاق ٨٧ .

ثم عاد فنَقَده ؛ واتخذ من قِصَّة مَقْتلِه وسيلةً لأن يعيد الكرة على الصاحب وينالَ منه بعد أن كان فرغ منه .

وهكذا شمِل الحديث في كتاب « الأخلاق » ثلاثة من الوزراء .

وحين ذكر أبو حيّان للوزير ابن سَعْدان تلك الخلاصة الموجزة عن كتاب « الأخلاق » هذا في « الإمتاع » اختصر الكلام اختصاراً أخَلّ بنظمه ، فظن بعض دارسي أبي حيان من المعاصرين أن ثاني الوزيرين هو أبو الفتح لا أبو الفضل .

وهو ظنٌ يَكْشِف عن خطئه كتاب الأخلاق نفسُه .

* * *

ونسخة كتاب « أخلاق الصاحب وابن العميد » وحيدة فيما نعلم ، والاعتماد عليها وحدَها عند نشرِه يُعرّض الناشر إلى كثير من الغرر .

ومن هنا أحسست بالحاجة إلى الاستعانة بالمظان والمراجع التي رأيت أن الاستعانة بها من شأنها أن تَعُود على هذا النصّ بالتأييد والتقوية ، وأن تشعر القارئ بنوع من الاطمئنان على سلامة النص ، فاستنجدت بما أمكنني أن ألجأ إليه من كتب مخطوطة ومطبوعة ، وأظنني لم أرجع خائباً فيما رجوتُه منها .

وعليّ هنـا أن أتقدم للمجمع العلمي العربي برجاء قبول عذري عن تأخري زمناً طويلاً دون إنجاز العمل في هذا الـكتاب ، وأن أسجل له شكري الخالص على تفضّله بطبعه ضمن نشرياته .

وقد بذلتُ جهـدي ، وعسـاني أصبتُ أو قاربت . فإن أخطأت فلله وحده صفة الـكمال .

الرباط ٨/٦/١٩٦٥ م محمد بن تاويت الطنجي